بسم الله الرحمن الرحيم

منهج العمل الروحي الإسلامي ﴿التصوف﴾

احمدُ الله لذاته، فهو الموجودُ ـ جلَّ وعلا ـ قبل الوجود. فخلق الوجود، وهو هو، على ما هو عليه، لا إله إلا هو الملك القدوس، القائل:﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ اللهُ. اللهُ، يا من حارتْ عُقولُ العُقلاءِ في كُنهِ ذاتهِ ـ تبارك وتعالى ربُّنا وتقدس.

وأصلي وأسلم على نبيِّنا محمَّدٍ؛ المجتبى لحبِّ ذاته، والمصطفى من سائر خلقه،وإمام أنبياءه ورسله،صاحب الشفاعة العظمى،والمقام المحمود، من روحي فداه؛

رُوحي الفِدى للمصطفى يُهدى لَهُ   مالي فدى إلا الفدى يُذبح لَهُ

وعلى سائر النبيين والمرسلين، وآل كلّ وسائر الصالحين؛ أهل الإيمان واليقينِ، والعلم والعرفان، والإخلاصِ والصفاءِ، والمحبةِ والدعوةِ؛ بالإيمان الخالص،

والدين الكامل الصالح؛ علـى قـدم الهمـة، والانتبـاه، والتحمل في سبيل الله ـ عزَّ وجلّ.

أمّا بعدُ: فالتصوف الإسلامي هو: «العملُ».

أما لفظ التصوف: فقـد أكثـر النـاس في معانيـه وذلك لأهميته، وكان جُلّ مقصودهم هو الوصـول إلى رضا الربِّ، وقُربِه، وجنَّتِه ـ جلَّ جلالُهُ وعَمَّ نوالُهُ.

ومن معانيه: ما أورده شيخي وأستاذي العارف بالله الدكتور عبد الله بن مصطفى كمال الدين الهرشمـي ـ رضي الله عنهما ـ في كتابه"معالم الطريق" حيث قال: فيكفينا في شأن «التصوف» و«الصـوفي» العلـم بـأن الكلمتين (اشتقاق فعل للاولى ونسبة للثانية) هما من الصوف الذي يغزل وينسج منه الملابس؛ وأن الزهـاد من سلف المسلمين فضلوا ألبسة الصوف على ألبسة الحرير والكتان والقطن لما كان غلاء أثمـان الأخيريـن

ولكون الحرير محرماً على الرجال لباسه؛ وأن لقب «صوفي» و«متصوف» ومن ثم «التصوف» إنما ابتدعها أعداء الزهاد وخصومهم من المبتدعة قدحاً فيهم لا مدحاً، واستصغاراً لشأنهم لا تكريماً، فذهبت هذه الكلمات على الألسن في القرن الهجري الثاني فاستعملها الزهاد أنفسهم مترفعين غير عابئين بما عيب عليهم من لبس الصوف؛ وأن المؤمنين الذين كانوا يزهدون في متاع الحياة الدنيا ويستعدون لدار القرار إنما عرفوا خلال القرن الهجري الأول باسم «الزاهد» الوارد في القرآن المجيد بمعنى المعرض عما يزهد فيه؛

وقال: فاعلم أن العمل الروحي في الإسلام معتمد على أربعة أركان راسخة واضحة هي التالية ذكراً:-

الركن الأول: الاعتصام بالشريعة الغراء.

الركن الثاني: العلم النافع.

الركن الثالث: الجهاد في سبيل الله.

الركن الرابع: العمل الصالح. انتهى.

وقال الشيخ ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى: وكان للزهاد عدة أسماء يسمون بالشام (الجوعية) ويسمون بالبصرة (الفقرية) و(الفكرية)ويسمون بخرسان (المغاربة) ويسمون أيضاً (الصوفية الفقراء) والنسبة في الصوفية إلى الصوف؛ لأنه غالب لباس الزهاد. (الفتاوى ١٠/ ٣٦٨-٣٦٩). وقال أيضاً: وأما الصوفية فهم يثبتون المحبة بل هذا اظهر عندهم من جميع الأمور. وأصل طريقهم إنما هي الإرادة والمحبة. واثبات محبة الله مشهور في كلام أولاهم وأخراهم؛ كما هو ثابت بالكتاب والسنة واتفاق السلف.(مجموع الرسائل الكبرى ٢/ ١٤٤).

وقال: وأما محبة الأعمال التي يحبها الله الواجبات المستحبات الظاهرة والباطنة فكثيرة معروفة، وكذلك حبهم لله وهم المؤمنون أولياء الله المتقون، وهذه المحبة كما نطق بها الكتاب والسنة الذي عليه سلف الأمة وأئمتها، وأهل السنة، والحديث، وجميع مشائخ الدين، وأئمة التصوف: أن الله محبوب لذاته محبة حقيقية بل هي أكمل محبة؛ فإنها كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ ١٦٥﴾ (سورة البقرة)، وكذلك هو سبحانه يحب ما يحب عباده المؤمنون، وما هو في الله محبة حقيقية. (التحفة العراقية في الأعمال القلبية ص ٧١ ـ ٧٢).

وقال أيضاً: فإنك إذا أحببت الشخص لله كان الله هو المحبوب؛ فكلما تصورته في قلبك تصورت محبوب الحق فأحببته فازداد حبك لله كما إذا ذكرت النبيّ ﷺ والأنبياء قبله والمرسلين وأصحابه الصالحين

وتصورتهم في قلبك؛ فإن ذلك يجذب قلبك إلى محبة الله المنعم عليهم وبهم إذا كنت تحبهم لله؛ فالمحبوب لله يجذب إلى محبة الله والمحب لله إذا أحب شخصاً لله؛ فإن الله هو محبوبه، فهو يحب أن يجذبه إلى الله تعالى وكل من المحب لله والمحبوب لله يجذب إلى الله. (الفتاوى ج١٠/ ص٦٠٨).

وقال أيضاً: أما المستقيمون السالكون كجمهور مشائخ السلف مثل: الفضيل بن عياض، وإبراهيم بن أدهم، وأبي سليمان الداراني، ومعروف الكرخي، والسري السقطي، والجنيد بن محمد وغيرهم من المتقدمين، ومثل الشيخ عبد القادر الجيلاني ـ قدس الله روحه ـ والشيخ حماد أبي البيان، وغيرهم من المتأخرين فهم لا يسوِّغون للسالك ولو طار في الهواء أو مشى على الماء أن يخرج من الأمر والنهي الشرعيين، بل عليه أن يعمل المأمور ويدع المحذور إلى أن يموت، وهذا

هـو الحـق الـذي دلَّ عليـه الكتـاب والسـنة وإجمـاع السلف، وهذا كثير في كلامهم. (الفتاوى ج١٠ ص ٥١٦ ـ ٥١٧). انتهى.

قلت: أما نسبة الصوفية إلى الصوف ـ تسميةً أو زهداً؛ فقد روى الإمام الجنيد بن محمد (رضي الله عنه) عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ـ كرم الله وجهه، و (رضي الله عنه) أنه قال: الصوف ثلاثة أحرف: فالصاد: صدقٌ، وصـبرٌ، وصفاءٌ. والواو: ودٌ، ووردٌ، ووفاءٌ. والفاء: فقـرٌ، وفـردٌ، وفناءٌ؛ فإذا لم توجد هذه الصفات فيه لا يكون صوفيا.

سُئل الإمام الجُنَيْد البغدادي ـ قـدس الله روحـه ـ عن التصوف فقال: اسم جـامع لعشـرة معـانٍ، الأول: التقلل من كل شيء مـن الـدنيا عـن التكـاثر فيهـا، والثاني: اعتماد القلب على الله (عز وجل) من السـكون إلى الأسباب، والثالث: الرغبة في الطاعات من التطوع

في وجود العوافي، والرابع: الصبر على فقد الدنيا عن الخروج إلى المسألة والشكوى، والخامس: التمييز في الأخذ عند وجود الشيء، والسادس: الشغل بالله (عز وجل) عن سائر الأشياء، والسابع: الذكر الخفي عن جميع الأذكار، والثامن: تحقيق الإخلاص في دخول الوسوسة، والتاسع: اليقين في دخول الشك، والعاشر: السكون إلى الله (عز وجل) من الاضطراب والوحشة؛ فإذا استجمع هذه الخصال استحق بها الاسم وإلا فهو كاذب. انتهى.

وقال الإمام الرباني السيد احمد الرفاعي (رضي الله عنه): أي حالة باطنة لقوم لم يأمر ظاهر الشرع بعملها، وأي حالة ظاهرة لم يأمر ظاهر الشرع بإصلاح الباطن لهما لا تعملوا بالفرق والتفريق بين الظاهر والباطن؛ فإن ذلك زيغ وبدعة.

وقال: كونوا مع الشرع في آدابكم كلها ظاهراً وباطناً؛ فإن من كان مع الشرع ظاهراً وباطناً كان الله حظه ونصيبه. ومن كان الله حظه ونصيبه كان من أهل مقعد صدق عند مليك مقتدر. انتهى.

وقال الحافظ أبو نُعيم (رضي الله عنه): التصوف أحوال قاهرة، وأخلاق طاهرة تقهرهم الأحوال فتأسرهم، ويستعملون الأخلاق فتطهرهم، تحلوا بخالص الخدمة، فكفوا عن طوارق الحيرة، وعصموا عن الانقطاع والفترة، لا يأنسون إلا بالله، ولا يستريحون إلا بحبه، فهم أرباب القلوب المراقبون للمحبوب، التاركون للمسلوب، سلكوا مسلك الصحابة والتابعين ومن نحى نحوهم من المتقشفين والمتحققين، والمميزين بين الإخلاص والرياء، والعارفين بالخطرة والهمة والعزيمة والنية، والمحاسبين للضمائر، والحافظين للسرائر،

المخـالفين للنفـوس، والمحـاذرين مـن الخنـوس [أي: التأخر] بدائم التفكر، وقائم التذكر، طلبـاً للتـداني، وهرباً من التواني، لا يستهين بحـرمتهم إلا مـارق، ولا يدعي أحوالهم إلا مائق، ولا يعتقد عقيدتهم إلا فائق، ولا يحسـن مـوالاتهم إلا تـائق، فهـم سـرج الآفـاق، والممدود إلى رؤيتهم بالأعناق، بهـم نقتـدي، وإيـاهم نوالي إلى يوم التلاق. انتهى.

وقال الإمام الأجل معروف الكَرْخِيّ ـ قـدس الله سره: التصوف هو الأخذ بالحقائق، والكلام بالدقائق، والاياس مما في أيدي الخلائق.

وقال الإمام السَّرِيُّ السَّـقَطِيُّ (ﷺ): المتصـوف اسم لثلاث معانٍ: هو الذي لا يطفئ نور معرفته نـور ورعه، ولا يتكلم بباطل في علم ينقضه عليه الكتـاب

والسنة، ولا تحمله الكرامات على هتك أستار محارم الله.

وقال الإمام الغزاليّ ـ رحمه الله تعالى ــ في كتابه «المنقذ من الضلال»: لقد علمت يقيناً أن الصوفية هم السالكون لطريق الله خاصة، وأن سيرتهم أحسن السير، وطريقهم أصوب الطرق، وأخلاقهم أزكى الأخلاق.

وقال الإمام فخر الدين الرازي ـ رحمه الله تعالى ـ في كتابه المسمى بـ «اعتقادات فرق المسلمين والمشركين»: المتصوفة قوم يشتغلون بالفكر وتجرد النفس عن العلائق الجسمانية، ويجتهدون ألا يخلو سرهم وبالهم عن ذكر الله تعالى في سائر تصرفاتهم وأعمالهم، منطبعون على كمال الأدب مع الله ﴿عز وجل﴾، وهؤلاء هم خير فرق الآدميين.

وقال الإمام النووي ـ رحمه الله تعالى ـ في «المقاصد»: أصول طريق التصوف خمسة:

١- تقوى الله في السر والعلانية.

٢- واتباع السنة في الأقوال والأفعال.

٣- والإعراض عن الخلق في الإقبال والإدبار.

٤- والرضى عن الله في القليل والكثير.

٥- والرجوع إلى الله في السراء والضراء.

فتحقق التقوى بالورع والاستقامة، وتحقيق السنة بالتحفظ وحسن الخلق، وتحقيق الاعراض بالصبر والتوكل، وتحقيق الرضى عن الله بالقناعة والتفويض، وتحقيق الرجوع إلى الله تعالى بالشكر له في السراء، واللجوء إليه في الضراء، وأصول ذلك خمسة: علو الهمة، وحفظ الحرمة، وحسن الخدمة، ونفوذ العزيمة، وتعظيم النعمة. فمن علت همته ارتفعت رتبته،ومن

حفظ حرمة الله حفظ الله حرمته، ومن حسنت خدمته وجبت كرامته، ومن نفذت عزيمته دامت هدايته، ومن عظم النعمة شكرها ومن شكرها استوجب المزيد.اهـ

وقال الشريف الجَرجاني(ﷺ): التصوف: الوقوف مع الآداب الشرعية ظاهراً، فيرى حكمها من الظاهر في الباطن، وباطناً فيرى حكمها من الباطن في الظاهر، فيحصل للمتأدب بالحكمين كمال.

وقال الإمام السرَّاج الطُوسيّ في "اللمع": أن أُولي العلم القائمين بالقسط الذين هم ورثة الأنبياء، هم المعتصمون بكتاب الله تعالى، المجتهدون في متابعة رسول الله (ﷺ)، المقتدون بالصحابة والتابعين، السالكون سبيل أوليائه المتقين وعباده الصالحين، هم ثلاثة أصناف: أصحاب الحديث، والفقهاء، والصوفية، فهؤلاء هم الأصناف الثلاثة من أُولي العلم القائمين

بالقسط الذين هم ورثة الأنبياء، وكذلك أنواع العلم كثيرة: فعلم الدين من ذلك ثلاثة علوم: علم القرآن، وعلم السُّنن والبيان، وعلم حقائق الإيمان، وهي العلوم المتداولة بين هؤلاء الأصناف الثلاثة؛ وجملة علوم الدين لا تخرج عن ثلاث: آيات من كتاب الله ﴿عز وجل﴾، أو خَبَر عن رسول الله ﴿ﷺ﴾، أو حِكمة مستنبطة خطرت على قلب ولي من أولياء الله تعالى.

وأصل ذلك حديث الإيمان حيث سأل جبريل عليه السلام النبيَّ ﴿ﷺ﴾ عن أصولٍ ثلاثة: عن الإسلام والإيمان، والإحسان الظاهر والباطن، والحقيقة؛ فالإسلام ظاهر، والإيمان ظاهر وباطن، والإحسان حقيقة الظاهر والباطن؛ وهو قول النبيّ ﴿ﷺ﴾: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»، وصدقه على ذلك جبريل، والعلم مقرون بالعمل، والعمل مقرون بالإخلاص، والإخلاص أن

يريد العبد بعلمه وعمله وَجْهَ الله تعالى؛ فهؤلاء الأصناف الثلاثة في العلم والعمل متفاوتون، وفي مقاصدهم ودرجاتهم متفاضلون، وقد ذكر الله تعالى تفاضلهم ودرجاتهم فقال (ﷻ): ﴿وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍۚ ﴿١١﴾﴾، وقال: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْۚ ﴿١٣٢﴾﴾، وقال: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴿٢١﴾﴾، وقال النبيّ (ﷺ): «الناس أكفاء متساوون كأسنان المشط، لا فضل لأحد على أحد إلا بالعلم والتُّقَى». انتهى.

وقال شيخي وأستاذي العلامة العارف بالله الشيخ مصطفى "كمال الدين" بن أبي بكر "الملقب بغياث الدين" الهرشمي النقشبندي ـ رضي الله تعالى عنهما وأرضاهما، في «لوامع الأنوار» عن التصوف أو الطريقة قائلاً: هي في الحقيقة عبارة عن أعمال مرضية لدى الله سبحانه انزلها إلى نبيه الكريم لتبليغ الأمة،

منها ما ذُكر في الفقه وهو النية بالقلب واللسان، والصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، ومنها ترك المحظورات التي يجب حتماً التوقي عنها وهو ما قاله سبحانه وتعالى: ﴿وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ﴿١٢٠﴾﴾ (سورة الأنعام) أي: اتركوا المآثم الظاهرية التي هي القتل والزنا والسرقة واكل مال الحرام والنظر الحرام والغيبة، والمآثم الباطنية التي هي اكبر إثماً، وهي الحسد والطمع والرياء والنفاق والعُجب؛ وقد نص في الفقه في كتاب «التُحفة» ما نصه: ويجب علينا تزكية النفس عن الأخلاق الرديئة، ومنها المبرات المقربات إلى الله تعالى بالقبول والرضى؛ ما قاله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ ﴿٢٠٥﴾﴾ (سورة الأعراف) فسر الجهر بقوله: ﴿مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ أي: كل ما صدر من اللسان فهو جهر بقرينة

المقابلة بالنفس و﴿ مِنَ ﴾ للتبيين لا للتبعيض: فاعلم أن الحفظة يسمعون كلّ ما صدر على اللسان سواء كان صوتاً عالياً أو خفيا ولا يسمعون ما في القلب، قال رسول الله (ﷺ): «فضل الذكر الخفي الذي لا تسمعه الحفظة على الذي تسمعه سبعون ضعفاً»، هذا من جهة الأجر، وأما من جهة انه يكون مبدءاً لمحبة الله والفناء فيه فله من الدرجات العليا لا يعلمها غير الله، نعم ذكر اللسان عبادة ولكن نحن بصدد أن نقوم بعمل أفضل الذي يعمله النبيّ وخواص أصحابه وقد ثبت أن النبيّ (ﷺ) رأى رجلاً يذكر جهراً فطلبه وقال: «ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ إِنَّكُمْ لَيْسَ تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلا غَائِبًا»، أي: اذكر ربك في نفسك، ومنها وسائل، قال تعالى: ﴿وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ ٣٥﴾(سورة المائدة) ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١١٩﴾(سورة التوبة). وقال ـ قدس الله سره:

(الشريعة الظاهرية المحمدية هي ميزان الحق والباطل، فأيّ سرٍّ يُخالف ذلك فهو باطل).

ـ وقد ذكر الحافظ الجليل الإمام السيوطي في كتابه الموسوم «حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة» (١٤١٤/٣)، والمقريزي في «الخطط» (٤١٥/٣): إن صلاح الدين الأيوبيّ أول من أنشأ (خَانقَاه) الصوفية بمصر، ووقف عليها أوقافاً كثيرة، وكان سكانها يعرفون بالعلم والصلاح، وولي مشيختها الأكابر ومن ترجى بركتهم، مع ما كان له من الوزارة والامارة وتدبير الدولة وقيادة الجيوش وتقدمة العساكر».انتهى، و(خَانَقاه) [أي: دارُ الفقهاء]، ويسمى أيضاً: «زاويةً أو رباطاً».

قلت: التصوفُ: العملُ. أي العمل بشريعة الله تعالى، والإقتداء بالنبيِّ محمّدٍ (ﷺ) في الأقوال،

والأفعال، والأحوال، والأخلاق، صفاءً وإخلاصاً ومـن اعرض عـن هـذا فهـو كـذاب؛ ويعـرف أيضـاً بأنـه الإخلاص بفضـائل الأعمـال، والحضـور والـذكر في ساعات الليل والنهار ـ لتحقيق الصلة والتـأثر بحـال النبيِّ وأخلاقهِ العظمى ـ صلوات ربي وسلامه عليـه؛ ولما وقع لخاصة الصحابة مع حضرته (ﷺ) فقـد روى احمد ومسلم والترمذي عن حنظلة قال: لَقِيَنِي أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ: كَيْفَ أَنْتَ يَا حَنْظَلَةُ قَالَ: قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ مَا تَقُولُ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ (ﷺ) يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَـيْنٍ فَـإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْـدِ رَسُـولِ اللَّـهِ (ﷺ) عَافَسْـنَا الأَزْوَاجَ وَالأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ فَنَسِينَا كَثِيرًا قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَوَاللَّهِ إِنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هَذَا فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ (ﷺ) قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَـةُ يَـا رَسُـولَ

اللَّهِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ): ﴿وَمَا ذَاكَ﴾ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ نَكُونُ عِنْدَكَ تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ عَافَسْنَا الأَزْوَاجَ وَالأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ نَسِينَا كَثِيرًا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ): ﴿وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُون عِنْدِي وَفِي الذِّكْرِ لَصَافَحَتْكُمْ الْمَلائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً ثَلَاثَ مَرَّاتٍ﴾. وفي رواية أخرى: ﴿لَوْ تَدُومُونَ عَلَى الْحَالِ الَّذِي تَقُومُونَ بِهَا مِنْ عِنْدِي لَصَافَحَتْكُمْ الْمَلائِكَةُ فِي مَجَالِسِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ وَعَلَى فُرُشِكُمْ وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً وَسَاعَةً﴾.

ـ وكما وقع لقلوبهم (رضي الله عنهم) بعد انتقال الرسول الأعظم (ﷺ) إلى الرفيق الأعلى قال أنس: لَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الَّذِي دَخَلَ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) الْمَدِينَةَ أَضَاءَ مِن الْمَدِينَةِ كُلُّ شَيْءٍ فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الَّذِي مَاتَ فِيهِ

رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) أَظْلَمَ مِن الْمَدِينَةِ كُلُّ شَيْءٍ وَمَا فَرَغْنَا مِنْ دَفْنِهِ حَتَّى أَنْكَرْنَا قُلُوبَنَا. رواه الإمام احمد، والترمذي.

قال صاحب «تحفة الأحوذي»: لم يرد عدم التصديق الإيماني بل هو كناية عن عدم وجدان النورانية والصفاء الذي كان حاصلاً من مشاهدته وحضوره (ﷺ) لتفاوت حال الحضور والغَيْبَة.

قلت: وإدراكاً لهذه الغَيْبَة النورانية المحمدية بإذنه تعالى؛ قال ـ جلَّ ثناؤه: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ ﴿١٠٨﴾﴾ (سورة يوسف)، ولقوله ـ عليه الصّلاة والسّلام: «الْعُلَمَاءُ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ، وإنَّ الأنبياءَ لَمْ يوّرثوا ديناراً ولا درهماً، ولكن وَرَّثُوا الْعِلْمَ مَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ»؛ فالعلماء العاملون هم: ورثة النبيّ، وخلفائه، ونوابه (ﷺ)؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾، وقال ـ عليه الصّلاة

والسّلام: ﴿خياركم الذين إذا رؤوا ذكر الله بهم﴾؛ ولقوله (ﷺ): ﴿أولياء الله هم الذين يذكر الله لرؤيتهم﴾؛ فالصحبة مع العلماء العاملين، والمرشدين الربّانيّين، تحقق لك ثلاثة مراتب جليلة؛ الأولى: ذكر القلب، فتبدأ بالذكر، ومنتهياً إلى تحقيق الذكر؛ الثانية: الصلة برسول الله (ﷺ)، فتنتقل بهذه المرتبة من الصلة إلى عظيم الصلة به(ﷺ)؛الثالثة: الفناء بحب الله سبحانه، فتنتقل من الحب إلى فناء الحب بذات الله الأقدس. تبارك ربّنا وتعالى وتقدس.

واعلم يا أخي، كلما كان المربي متحققاً كان التأثير في هذه المراتب أبلغ تأثيرا؛ وعلامة هذا التحقيق ثلاثة، أولاً: التمسك بسنة النبيّ المختار، ثانياً: الصحبة مع العلماء العارفين الأخيار، ثالثاً: المراقبة والحياء من الملك الديان ـ جلَّ في علاه.

ـ ذكر الكبار ـ من أهل العلم والعرفان: أن أبا الحسن النوري«رضي الله عنه»،قال لأصحابه يوماً: قوموا لنذكر الله عند الشيخ معروف الكرخي «رضي الله عنه»،قالوا: الله مع الذاكر، ألا نذكر الله هنا في مكاننا، فقال«رضي الله عنه»: هنا نذكر الله بما عندنا، وهناك نذكر الله بما عند الشيخ معروف الكرخي «رضي الله عنه»؛ قلتُ: وهذا الأثر موافق لقوله «صلى الله عليه وسلم»:﴿وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي وَفِي الذِّكْرِ لَصَافَحَتْكُمْ الْمَلائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ﴾، فالعلماء العاملون هم ورثةُ النبيِّ «صلى الله عليه وسلم»، كما اخبر بذلك عليه الصّلاة والسّلام.

وروي عن الإمام الرباني الشيخ عبد القادر الجيلاني «رضي الله عنه»أنه قال: (كان الأوائل رحمهم الله تعالى يقطعون المشرق والمغرب على أقدامهم، على أن يجدوا عالماً، عارفاً بالله، مُتصرفاً)؛ أما العالم والعارف بالله، فقد

ذكر صفاتهم الإمـام الـرواس (رضي الله عنه) قـائلاً: (العلمـاء العاملون أخذوا بالنصوص بالعموم والخصوص فهم في أعمالهم وأقوالهم مقيدون بالنص عاملون بـه كـل منهم على ما ذهب إليه إمامه ذاهـب، وبقولـه قائـل، وبعلمه عامل، اتخذوه دليلا، وقلد في أعماله المعصـوم الأعظم(صلى الله عليه وسلم) لا ينفك أحدهم عن هذا النمط الكريم أبداً، فهو ولي من أوليـاء الله تعـالى ـ يُتَّبـع، ويُعتَقَـد، ويُقبل قوله ويُنقل.

والمشائخ العارفون: أخذوا مع العمل بالمنصـوص بإشغال القلوب، وتهذيبها بالإخلاص الكامل في كـلّ أعمالهم، وبالمخالفة لنفوسهم في كـلّ أحـوالهم، حتـى انتهضوا للأخذ بالعزائم، وعدوا الأخذ بالرخص من أحوال الضعفاء، وتحققوا بالإتباع ـ بالقول، والعمـل، والحال، ومشـربهم هـذا هـو: عـين مشـرب العلمـاء

العاملين، غير أنهم دققوا النظر بإحكام الأحكام التي جاء بها الخبر، فلذلك ظهرت على أيديهم آثار تلك الأحوال النبوية الصادقة، وأفاض الله تعالى إليهم كلّ مزية جليلة، وكلّ كرامة خارقة.

وأجلهم من تحلى مع هذا الحال بالعلم النيِّر، وجمع العمل والحال، فمثل ذلك الرجل يُعد من أعيان الفريقين، ومن صدور الطائفتين، وهم وإن قسمناهم إلى قسمين، وعددناهم طائفتين، ففي حقيقة الأمر هم ركب واحد، كلهم في عمله إلى الله راجع وعائد، ورثة الأنبياء الذين لا نفرق بين أحد منهم ـ رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

فعليك أيها المحب بإعظام الركبين، ومحبة الفريقين، واعلم أن من شذَّ من العلماء عن المشرب الذي وصفنا به العلماء العاملين، فهو من علماء السوء ومن

البطالين، ومن شذَّ عن المشرب الذي وصفنا به المشائخ العارفين فهو من الكاذبين، أو من الجاهلين. فنقِّ نفسك في الطريقين من وصف الشاذِّين عن المنهجين، والله ولي الهداية، ومنه التوفيق والعناية. انتهى.

ولله درّ الإمام الشافعي (رضي الله عنه) حيث قال:-

فَقِيهاً وَصُوفِياً فَكُنْ لَيْسَ وَاحِداً   فَإِنِّي وَحَقِّ اللهِ إِيَّاكَ أَنْصَحُ
فَذلِكَ قَاسٍ، لَمْ يَذُقْ قَلْبُهُ تُقىً   وَهذا جَهُولٌ،كَيْفَ ذُو الْجَهْلِ يَصْلُحُ

قلت: ومنهج العارفين الربانيّين: هو الأخذ بحقائق العلوم، وتهذيب النفوس، ومقامات القلوب، وعلو الهمة، امتثالاً بحال النبيِّ وأخلاقه ودعوته (صلى الله عليه وسلم) للقلوب والأمة - فهو السير إلى الله بما يُحبهُ الله [أي: بقبوله] - جلَّ جلالُهُ وعمَّ نوالُهُ، ولا إله غَيْرُهُ.

وللأمانة نقول: نتبرأ من كلّ من يخالف السُّنة الشريفة؛ ويجب السير على صراط الشرع الإسلامي

الحنيف؛ وننبه ونحذر من كل بِدعة تدخل في الاعتقاد والعمل، وما الطريق ـ إلا العمل الخالص بالدين كلّه على قدم الهمة والتحمل في سبيل الله (عز وجل).

ـ أما التصرف: فهو عين التوجه؛ كما قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ (سورة آل عمران)، صرح سبحانه بأنه قد انعم على النبيِّ محمّدٍ (صلى الله عليه وسلم) مُنْحَة التصرف في القلوب، فبنور قلبه يتصرف بإذن الله تعالى ـ في قلوب الناس فيجعله ذاكراً والنفسُ زاكيةً؛ ومن ذلك ما وقع لأُبي بن كعب (رضي الله عنه) قال: (كُنْتُ فِي الْمَسْجِدِ فَدَخَلَ رَجُلٌ يُصَلِّي فَقَرَأَ قِرَاءَةً أَنْكَرْتُهَا عَلَيْهِ ثُمَّ دَخَلَ آخَرُ فَقَرَأَ قِرَاءَةً سِوَى قَرَاءَةِ صَاحِبِهِ فَلَمَّا قَضَيْنَا الصَّلاةَ دَخَلْنَا جَمِيعًا عَلَى رَسُولِ

اللَّهِ (ﷺ) فَقُلْتُ إِنَّ هَـذَا قَـرَأَ قِـرَاءَةً أَنْكَرْتُهَـا عَلَيْـهِ وَدَخَلَ آخَرُ فَقَرَأَ سِوَى قِرَاءَةِ صَاحِبِهِ فَأَمَرَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَرَأَا فَحَسَّنَ النَّبِيُّ (ﷺ) شَأْنَهُمَا فَسَقَطَ فِي نَفْسِي مِنْ التَّكْذِيبِ وَلَـا إِذْ كُنْـتُ فِـي الْجَاهِلِيَّـةِ فَلَمَّـا رَأَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا قَدْ غَشِيَنِي ضَرَبَ فِي صَدْرِي فَفِضْتُ عَرَقًا وَكَأَنَّمَا أَنْظُرُ إِلَى اللَّهِ (ﷻ) فَرَقًا فَقَالَ لِي: يَا أُبَيُّ أُرْسِلَ إِلَيَّ أَنْ اقْرَأْ الْقُرْآنَ عَلَى حَرْفٍ فَرَدَدْتُ إِلَيْـهِ أَنْ هَوِّنْ عَلَى أُمَّتِي فَرَدَّ إِلَـيَّ الثَّانِيَـةَ اقْـرَأْهُ عَلَـى حَـرْفَيْنِ فَرَدَدْتُ إِلَيْهِ أَنْ هَوِّنْ عَلَى أُمَّتِي فَرَدَّ إِلَيَّ الثَّالِثَـةَ اقْـرَأْهُ عَلَى سَـبْعَةِ أَحْـرُفٍ فَلَـكَ بِكُـلِّ رَدَّةٍ رَدَدْتُكَهَـا مَسْـأَلَةٌ تَسْأَلُنِيهَا فَقُلْتُ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِأُمَّتِي اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِـأُمَّتِي وَأَخَّرْتُ الثَّالِثَةَ لِيَوْمٍ يَرْغَبُ إِلَيَّ الْخَلْـقُ كُلُّهُـمْ حَتَّـى إِبْـرَاهِيمُ (ﷺ)»، وقـال تعـالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾، أي: يتسبب النبيّ (ﷺ)، لأن ينعم الله

سبحانه على بعض خواص هذه الأمة بالمُنحَةِ النبوية والتصرف في القلوب، عن طريق ورثته (ﷺ)؛ لقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ (٣٢) ﴾ (سورة فاطر)، وقال ـ عليه الصّلاة والسّلام: ﴿الْعُلَمَاءُ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ﴾، فيتحقق لذلك بكرم الله جلَّ وعلا، لبعض أفراد هذه الأمة بواسطة النبيِّ (ﷺ) فينعم الله عليهم فيتحققون بنيابة الرسول (ﷺ)، ومُنْحَتِهِ ـ فيؤثرون في القلوب فتصير قلوبُهم ذاكرةً ونُفوسُهم زاكيةً أو واطئةً، وقد فسر النبيُّ (ﷺ)، ذلك بقوله: ﴿أفضلكم الذين إذا رؤوا ذكر الله لرؤيتهم﴾، ولقوله عليه الصّلاة والسّلام: ﴿خياركم الذين إذا رؤوا ذكر الله بهم﴾، (وهذا ليس من عملك فقط، بل بصلتهم وحالهم الذي هو محض الفضل والكرم)، فتنبه؛ ولما روى الإمام البخاري عَنْ أَنَسٍ (رضي الله عنه) أَنَّ رَجُلاً سَأَلَ النَّبِيَّ (ﷺ) عَن

السَّاعَةِ فَقَالَ: مَتَى السَّـاعَةُ؟ قَـالَ: ﴿وَمَاذَا أَعْدَدْتَ لَهَا﴾ قَالَ: لا شَيْءَ إِلا أَنِّي أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ (ﷺ) فَقَـالَ: ﴿أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ قَالَ أَنَسٌ: فَمَا فَرِحْنَا بِشَيْءٍ فَرَحَنَا بِقَوْلِ النَّبِيِّ (ﷺ): ﴿أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ قَـالَ أَنَـسٌ: (فَأَنَا أُحِبُّ النَّبِيَّ(ﷺ)وَأَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ وَأَرْجُو أَنْ أَكُـونَ مَعَهُمْ بِحُبِّي إِيَّاهُمْ وَإِنْ لَمْ أَعْمَلْ بِمِثْلِ أَعْمَالِهِمْ).

قال الإمام الربّاني الشيخ عبد القادر الجيلاني ـ قدس الله روحه ـ في كتابه الموسوم"فتوح الغيب":-

وإن ساعد المقدور أو ساقك القضا	إلـى شـيخ حـق فـي الحقيقـة بـارع
فقـم فـي رضـاه، واتبـع لمـراده	ودع كلّ ما من قبل كنت تسارع عليه
ولا تعترض فيما جهلت من أمره ففي	فـإن الاعتـراض تنـازع
قصـة الخضـر الكـريم كفايـة	بقتـل الغـلام، والكلـيم يـدافع
فلمـا أضـاء الصـبح عـن ليـل سـره	وسـلّ حسـاماً للغياهـب قـاطع
أقـام لـه العذر الكليم وإنه	كذلك علم القوم فيه بـدائع

والعلم: أن الحبَّ الإراديَّ الجنباني، والمنهجُ الحبِّ هو: منهجُ الأولياءِ، وهذا لا يتحقق إلا بقطع الدنيا من القلـب، ليَسْـموَ القلـب بنـور الصـحبة والرابطـة والإحسان، وذلـك لتحقيـق الانـدماج بـين الأحـوال

والمقامات ـ بين النفس والفكر والقلب والروح، معرفةً وحباً بالله إلى الله ـ جلَّ جلالهُ وعمَّ نوالهُ.

واعلم يا أيها الأخ: أنَّ المعرفةَ الإلهية محلها القلب، والمحبةَ محلها الروح؛ والجمع بينهما كمال.

ـ ثم أمنية الوصول إلى مقام الصدّيقية وهي: معرفةٌ وتقوى، صدقٌ وتصديقٌ؛ ثم إلى دعوة الحق والنور، للقلوب والأمة المرحومة ـ تربيةً وبناءاً ـ إلى عظيم منازل الربّانيّة؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾﴾، (سورة آل عمران)؛ وقال رسول الله (ﷺ): ﴿ذاق طعمَ الإيمان مَن رضيَ بالله ربّاً وبالإسلام ديناً وبمحمّدٍ (ﷺ) نبياً﴾؛ وهذا الذوق المنبعث عن هذا الرضا؛ هو المعرفة بالله تعالى؛ كما قال المشايخ (رضي الله عنهم): والمعرفة نورٌ يقذفه الله في قلوب أحبابه لا يطّلع عليه ملكاً ولا بشراً؛ قال ـ

عليــه الصّــلاة والسّــلام: ﴿الإِسْلامُ عَلانِيَةٌ وَالإِيمَانُ فِي الْقَلْبِ﴾ قَالَ: ثُمَّ يُشِيرُ بِيَدِهِ إِلَى صَدْرِهِ ثَلاثَ مَرَّاتٍ قَالَ: ثُمَّ يَقُولُ: ﴿التَّقْوَى هَاهُنَا التَّقْوَى هَاهُنَا﴾.

والتقوى التي تقر في القلب فَتُحْكِمُ فيـه الإيمـان، هي روح المعرفة الإلهية؛ قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ٢٨١﴾ (سـورة البقـرة)، وقـال تعـالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ٦٣﴾ (سورة يـونس)، فبداية الطريق التمسك بالتقوى وجوبـاً لازماً، ونهايته: كمال التقوى عروجـاً متحققـاً؛ ومقـام الربّانيّة هو: كمالُ التقوى، والمعرفة، والمحبة، والـدعوة؛ أو بمعنى آخر هو: الدين والأمـة؛ قـال الكبـار (رضي الله عنهم): واعلم أن مجامع الطاعات محصورة في أمـرين: الطاعـة لأمر الله؛ وإليه الإشـارة بقولـه تعـالى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ﴾،

[أي: بالأمر]، والشفقة على خلق الله، وإلية الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ﴾.

فعليك أيها الحبيب العزيز: أن تكون حاضرَ الفكرِ، ذاكراً لله تعالى، بالقلب واللسان في ساعات الليل والنهار، خائفاً راجياً من الله أن يحفظك من الزلل وسوء المنقلب؛ كما كان يدعو حبيبك المعصوم الأعظم(ﷺ)، قائلاً: ﴿يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ﴾، امتثالاً لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ⑧﴾ (سورة آل عمران).

وكن سائراً بقلبك إلى منازل الآخرة؛ فأفضل الناس من سلك طريق النبيّ (ﷺ)وخواص أصحابه ـ في الاجتهاد في أحوال القلب، فإن سفر الآخرة يُقطع بسير القلوب لا بسير الأبدان. وأقول:-

يا روحَ رُوحي مَنْ لي سِواكا شَغُفَ الفُؤادُ بِسرِ هَواكا
يا طبَ قَلْبي رِضاً بِقَضاكا أنتَ حِبي أملي لُقياكا

أيها المحب العزيز: توجه إلى الله قائلاً: والله أُحبُك يا ربّي ولكن أخافك؛ وأخاف مـن نفسـي الـتي هـي أعدى أعدائي، فيا ربي آتِ نفسي تقواها، وزكها أنتَ، أنتَ خيرُ من زكاها، أنتَ وَليُها ومولاها، اللهم؛ إنـي أعوذ بعفوك من عقابك، وأعوذ برضاك من سـخطك، وأعوذ بك منـك، وأسـألك بأنـت أنـت؛ فيـا اللهُ الله؛ عاملنا بودك يا ودود، وأكرمنا بسحائب خزائن رحماتك ولطفك؛ يا لطيف يا واسع يا عليم يا الله. يـا أرحـم الراحمين، ويا أكرم الأكرمين، ويا أجود الجوادين. آمـين آمين، يا مولانا يا ربّ العالمين.

جَناتُ ذِكرِكَ في الفُؤادِ مَعالمٌ ومَعاني حُبكَ لِلجِنانِ حَنانُ
ووِدادُ حُبِكَ لِلجِنانِ مَحاسِنٌ تَبقى وحُبِكَ لِلنَعيمِ جِنانُ

اللّهم وفقنا لمرضاتك، واجعلنا ممن يَخشاكَ ويَتقيكَ حق تُقاتكَ. اللّهم إنا نسألك من خيرِ مـا سـألكَ منـه نبيُكَ محمدٌ ﴿ﷺ﴾، ونعوذ بك من شرِ مـا اسـتعاذكَ منـهُ

نبيُكَ محمدٌ(ﷺ)، وأنت المستعان، وعليـك الـبلاغ، ولا
حولَ ولا قوةَ إلا بالله العلي العظيم. ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا
ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ
رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾. سبحانك اللّهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا
أنت أستغفرك وأتوب إليك.﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا
يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾. (سورة الصافات).